شم النسيم وشم البنزين

اتصل بي محقق مخفر.. طالبا مني، بصفتي الممثل القانوني للشركة، ان اتواجد في المخفر لتوقيع الاوراق المتعلقة بانقلاب احدى سيارات النقل التي نملكها. وحيث ان التقرير لم يكن جاهزا للتوقيع عند وصولي للمخفر، وهو الأمر الذي توقعته مسبقا، فقد استأذنني المحقق المهذب، على غير عادة المحققين، في انهاء القضية التي كانت بيده والتي تورط فيها رجل كبير في السن ضخم الجثة مع خادمته الاجنبية ضئيلة الجسم فقيرة الحال.

استمعت الى ما دار من حوار بين المتهم والمحقق كجزء من التحقيق والى ما وجهه الرجل من اتهامات للخادمة المسكينة بانها هي التي اعتدت عليه جنسيا وهو نائم!! وبسبب مشكلة الاتصال بين الخادمة والمحقق، واستمرار مقاطعة المتهم لاقوالها تبرعت بترجمة اقوال الخادمة والتي جاءت مخالفة تماما لاقوال الرجل، حيث تبين انها حامل في شهرها الثالث تقريبا. استمرات الوضع وخرجت عن محضر التحقيق بعد ان انشغل المحقق بقضية اخرى فقمت بسؤال الخادمة مجموعة اخرى من الاسئلة الشخصية والتي تبين من اجاباتها عنها ان لمخدومها زوجتين وثمانية من الاولاد الذكور ولا تعرف عدد الاناث الا انهن أكثر من ثمان بكثير. ارتفع فجاة صراخ امراة دخلت غرفة المحقق ممسكة بيد صبي لم يتجاوز عمره الثالثة عشرة وهي تخبر المحقق بانه يقوم بشم اشياء غريبة ويهذي في البيت ويكسر الأثاث وان على «الشرطة» ان تودعه السجن لكي يتعلم!! لم يكد ينتهي المحقق من تهدئة روع الأم ويتعهد لها بعقاب الابن الا واحدهم يطرق الباب وهو يجر خادمته من يدها بعصبية ظاهرة، وما ان اقترب من مكتب المحقق حتى تركها واتجه الى الباب وهو يصيح: «لقد اخبرتكم قبل شهرين عن غيابها ولم تساعدوني في العثور عليها. لقد وجدتها اليوم في الشارع مع شخص من جنسيتها تهم بركوب (الوانيت) ولست مسؤولا عنها وهي الآن في ذمتكم!!» خرج الرجل مغلقا الباب وراءه بعصبية غريبة وغير عابئ بشيء وسط «دهشة كبيرة»!! والتي يبدو انني الوحيد الذي اصبت بها، فقد تبين ان الآخرين بمن فيهم المحقق قد تعودوا على مثل هذه الامور والتصرفات.

التفت المحقق باتجاهي مرة اخرى وهو يعتذر عن تاخير كتابة التقرير المتعلق بحادث المرور. فقلت له انني لست متضايقا، فما اراه يحدث امامي جديد عليّ، وكنت اتخيل حدوثه في الأفلام السينمائية فقط.

ما ان انهى المحقق قضية الاعتداء على الخادمة واودع المراهق غرفة الحرس لحين حضور والده في وقت لاحق ليقوم بكفالته حتى رن جرس الهاتف ومنه تبين ان عليه ان يذهب لمعاينة حادث قيام احد الأشخاص باطلاق نار من مسدس عسكري على شخص آخر. نهض المحقق عن كرسيه وجمع اوراقه وطلب مني، وهو يعتذر، إما الانتظار لحين عودته او القدوم في اليوم التالي.

هممت بالجلوس على احد كراسي المخفر الخشبية الطويلة ولكن قبل ان افعل ذلك تلمست المقعد بيدي فلصقت بخشبها من شدة قذارته ففضلت «التسكع» في ارجاء المخفر وممراته والتلصص على غرفه.

اصبت بصدمة عندما اكتشفت تحول الساحة الداخلية، التي تطل عليها غالبية الغرف، التي كان من المفترض ان تكون حديقة داخلية جميلة الى مخزن لعشرات الدراجات النارية والهوائية وصناديق الباعة المتجولين التي تمت مصادرتها او حجزها لسبب او آخر وقد تكدست على بعضها بشكل محزن وسيئ!

لم يطل انتظاري كثيرا فقد عاد المحقق المهذب جدا بعد ان سلم القضية لزميل له. سألته، وكان الوقت قد بلغ السادسة مساء، عما اذا كان هذا اليوم استثنائيا في عدد الحوادث وفي نوعيتها وهو وقت الذروة في عدد الحوادث!! فقال ان ما رايته لا يعد شيئا بالمقارنة بالأيام الاخرى وخاصة في الساعات الاولى من الصباح، وفي يومي الخميس والجمعة من كل اسبوع، واثناء فترات العطل المدرسية. وقال ان غالبية الحوادث والجرائم والمشاكل والقضايا يكون احد اطرافها شابا او اكثر وخاصة من اولئك الذين تقع اعمارهم بين ١٥ و٢٢ عاما، ومن الذين نشاوا في اسر فقيرة كبيرة العدد تفتقد الرعاية والقدوة والحنان والتربية السليمة اما بسبب غياب الأب وتخلفه العلمي والدراسي، او لجهل الأم او لعدم قدرتها على السيطرة على ابنائها بعد سن معينة. وقال ان زيارة واحدة وخاصة بعد منتصف الليل لمستوصف او مستشفى المنطقة ستعطيني ايضا فكرة عن الجانب الأكثر عنفا ودموية في حوادث تلك المنطقة!!! قمت بتوقيع التقرير وخرجت من المخفر وانا اتخيل نفسي خارجا من تصوير احد المسلسلات التلفزيونية الاميركية التي تقع احداثها في احد مخافر مدينة نيويورك حيث يمتلئ المخفر بالمتهمين في عشرات الحوادث ومختلف انواع الجنح والجرائم.

لقد كانت تلك التجربة صدمة نفسية كبيرة لي، جعلتني اصاب بخوف من المجهول ومن المصير الذي ينتظرنا جميعا اذا لم نتدارك الامر سريعا.

تذكرت تلك الحادثة، وتذكرت ما اصبحت صحفنا تزخر به، وعلى الصفحات الاولى من اخبار الحوادث المرورية القاتلة وقضايا القتل والطعن والضرب والسرقة والسطو المسلح وتهريب المخدرات.. وعشرات انواع الحوادث التي لم تكن يوما بمثل هذا الكم الهائل وبتلك الوتيرة العالية، تذكرت كل ذلك وانا اقرأ ما قدمه الكثير من نواب المجلس من تبرير لمنح علاوة الاولاد لأبناء المتقاعدين والقول بان في ذلك تعديلا للتركيبة السكانية!!! ويا له من حل بائس ومرعب ومخيف!!!

ان على اولئك النواب القيام بزيارات علنية او سرية لمخافر ومستشفيات وسجلات التحقيق في العديد من المناطق لكي يعرفوا حجم المشكلة ومصدرها وسببها قبل ان يدعوا الى الموافقة على ذلك القانون، وان عليهم ان يعلموا الى اية هاوية يدفعون بهذا الوطن وابنائه من اجل كسب انتخابي رخيص وقصير الأجل.

احمد الصراف